تاريخ المآذن ومآذنة القيروان

بقلم جناب الكبتن كرسويل استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة المصرية

نقله الى العربية السيد محمد رجب مدرس بمدرسة العباسية

﴿ الأذان ﴾ لم تكن المآذن معروفة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى ابن هشام ان النبي حينما هاجر الى المدينة كان يصلي هو وأصحابه من غير أذان . ولكن لما سمع أن اليهود يستعملون قرناً ينفخون فيه ، والمسيحيين ناقوساً أحبَّ المسلمون بحاجتهم الى شيء مماثل لذلك يستعملونه هم أيضاً . ويؤخذ من بعض الاحاديث ان الدعوة الى الصلاة اقترحها عمر على النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهُ علم حينما أخبره بذلك أن الوحي قد سبقه الى ذلك في تلك اللحظة . ويؤخذ من حديث آخر ان عبد الله بن زيد أوحي اليهِ ذلك في منامه فأخبر النبي بهِ فوافق عليهِ واقرَّه وبناء على ذلك أمر مولاه بلالاً أن يؤذن داعياً الى الصلاة فكان بذلك بلال أول مؤذن في الاسلام . وكان من عادة بلال أن يؤذن من أعلى سطح يجاور المسجد الذي كان الى ذلك الوقت فناء منزل النبي

﴿ مقدمة عن المآذن ﴾ وذكر المقريزي عند تكلمه عن اعادة بناء مسجد عمرو بالفسطاط (أن الخليفة معاوية أمر مسلمة أن يبني صوامع للأذان فبنى مسلمة أربع صوامع لهذا المسجد في اركانه الاربعة فكان بذلك أول من بنى هذه الصوامع بهِ ولم يكن هناك قبله شيء منها وكان السلم الذي يصعد عليهِ المؤذنون يقع بالطريق حتى حوَّله خالد بن سعيد الى داخل المسجد) وفي الوقت نفسه اضيفت المآذن (المنارات) الى مساجد الخطط عدا مساجد خولان وتجيب

هذه أول اشارة الى المآذن . وقد كان مسجدا الكوفة الاول والثاني ومسجد البصرة الأول وربما الثاني أيضاً من دون مآذن كما أن مسجد عمرو الاول بالفسطاط لم تكن بهِ هو الآخر مأذنة . وقد جاء في شعر الفرزدق وهو أحد شعراء العصر الاموي ان الأذان كان يلقى من اسوار المدن

﴿ ماذا كانت هذه الصوامع الاربع ؟ ﴾ ان الخليفة الذي أعطى هذه الاوامر هو معاوية بن ابي سفيان أول الخلفاء الامويين وكان مقر حكمه دمشق حيث كان المسلمون يصلون بداخل السور الذي كان بهِ المعبد الوثني القديم وهذا السور الذي نعنيه هو الذي يشغل مكانه الآن المسجد الاموي بدمشق

ولما فتح العرب دمشق كان لهذا السور اربعة أبراج ليست كبيرة الارتفاع في كل جانب من جوانبه برج . ولا شك في أن هذه الابراج كانت المآذن الأولى لان ابن الفقيه (٩٠٣ م) يشير اليها بقوله مئذنة مع انهُ كان يعلم انها ترجع الى ما قبل الاسلام .

ولدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن الابراج الاربعة بسور المعبد الوثني بدمشق هي الاصل الذي بنيت على مثاله الصوامع الاربع التي انشأها مسلمة وان هذه الصوامع كانت أبراجاً صغيرة مربعة ويؤيد هذا الرأي ان كلمة (صومعة) هي الاسم الذي يطلق على المآذن في شمال افريقية وان هذه المآذن هي في الغالب أبراج مربعة في هذه البلاد

وعلى أي الاحوال فمن الواضح ان هذه الصوامع الاربع كانتاً شكلها ما كان ، كانت المآذن الاولى في مصر لان المقريزي يقول بصريح العبارة انهُ لم تكن هناك مآذن بمصر قبل مسلمة

ولم تكن فكرة بناء اربع مآذن بأربعة أركان المسجد مقصورة على دمشق والفسطاط. فان الخليفة الوليد بن عبد الملك حينما وسّع مسجد المدينة جعل مأذنة في كل ركن من اركانه . وليس من الغريب أن نجد ان الحرم الشريف بالقدس كان به أربع مآذن منذ سنة ٣٠٠ هجرية (٩١٣ م) على الاقل . أما ما رواه مجير الدين من وجود اربع مآذن به في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فهو في نظرنا بعيد الاحتمال للاسباب التي ذكرناها

اصل الاصطلاحات العربية لمأذنة استعملت في العربية ثلاث كلمات للدلالة على المأذنة (١) مئذنة او ميذنة (٢) صومعة (٣) منارة . وتطلق الكلمة الاولى في بعض الاحيان مأذنة (بفتح الميم) وهي مشتقة من الأذان وهو الدعوة الى الصلاة . ومعناها المكان الذي يرقى منهُ الأذان . أما الصومعة فالظاهر أنها الاسم الذي اطلقه العرب على ابراج الرهاد ، فانا نقرأ مثلا ان برج كنيسة يوحنا المعمدان في دمشق كان يقيم به راهب وان هذا الراهب رفض أن يتركه حينما بدأ الوليد في هدمه عند الشروع في بناء الجامع الاكبر. ويتكلم ابن جبير عن زهاد من المسلمين كانوا يشغلون المئذنة الغربية في الجامع المذكور وقت زيارته لهُ . وكانت الكلمة المستعملة في جميع الاحوال هي كلمة صومعة

وقد كانت جميع الابراج السورية والمآذن التي بنيت قبل القرن الثالث عشر الميلادي مربعة وعما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد أن هذه الكلمة (صومعة) هي الاصطلاح المستعمل في شمال افريقية حيث كان معظم المآذن من هذا الطراز

اما الاصطلاح الثالث (منارة) فكان يطلق اول الامر على المكان الذي تشعل فيهِ النار ثم على الشيء الذي ينبعث منهُ الضوء وقد استعمل بهذا المعنى في اشعار العرب للدلالة على مصباح الزيت او المشكاة التي كان يستعملها الرهبان المسيحيون في خلواتهم وللسبب نفسه أطلق على منارة جزيرة pharos فاروس بالقرب من الاسكندرية ثم على الفنارات عامة ثم اطلق بعد ذلك على ابراج المساجد لمشابهتها للفنارات ومنه اشتقت الكلمة الانكليزية Minaret . وقد ذكر فان برشم عند بحث اصل المأذنة ان لهذه المسألة ثلاثة اوجه تجب العناية بدراستها

١ — الغرض منها اي استخدامها للاغراض الدينية ٢ — دراستها من الوجهة المعمارية ٣ — دراستها من الوجهة اللغوية. وقد تناولنا الآن النقطتين الاولى والثالثة ونذكر فيما يلي التاريخ المعماري للمآذن

مئذنة مسجد القيروان

تاريخها : — يقول البكري (١٠٦٨ م) وهو اقدم مؤرخ نعتمد عليه في هذا الصدد : — انشأ محراب مسجد القيروان لاول مرة عقبة بن نافع وقد هدم المسجد جميعه عدا محرابه واعيد بناؤه بامر حسن وهو الذي نقل اليه من كنيسة قديمة العمودين الاحمرين المرقشين بالاسفر اللذين يمتازان بجمالهما الذي لا يضارع

ولما ولي هشام بن عبد الملك الخلافة (شعبان ١٠٥ هـ . يناير ٧٢٤ م) وصلته رقعة من والي القيروان وكان في ذلك الوقت بشر بن صفوان يقول فيها ان المسجد اصبح لا يسع المصلين وان في شماله مباشرة حديقة متسعة يمتلكها بنو فهر فاجاب الخليفة على هذه الرقعة بان امر بشراء هذه الارض وضمها الى المسجد وقد اطاع ذلك الوالي وانشأ بصحن المسجد مستودعاً للماء يقع غرب الاروقة . ثم بنى مأذنة فوق البئر التي كانت بتلك الحديقة وضعت اساسها في الماء . ومن غريب المصادفة انهُ وجد ان هذه المأذنة كانت تقع في منتصف الحائط الشمالي بالضبط وكان المؤسنون المخلصون يمتنعون عن الصلاة في الجزء الذي اضيف للمسجد مسوّغين سلوكهم هذا بقولهم ان الوالي قد اكره مالكي الحديقة على بيعها ولا تزال المأذنة حتى اليوم كما بناها حسن . يبلغ ارتفاعها ٦٠ ذراعاً واتساعها ٢٥ ذراعاً ولها بابان يواجه احدهما الشرق والآخر الغرب جوانبهما وسكاكينها من الرخام المزخرف المنحوت . فقول البكري « ولا تزال المئذنة حتى اليوم كما بناها حسن » يناقض — كما لحظ ذلك ريفويرا Revoira التفاصيل التي سبق ان ذكرها البكري بقوله ان المئذنة التي كانت في عصره كانت تلك التي بناها والي القيروان بشر بن صفوان بامر الخليفة هشام . وفي الحقيقة فقد توضح بجلاء ان الجزء الذي كان يشغل القسم الشمالي من المسجد والمنارة قد اشتري فقط في ذلك العهد ولذلك فذكر اسم حسن لا بد ان يكون جاء سهواً من البكري او قد يكون من اخطاء النساخ . فقد كان بشر والياً من ١٠٣ هـ (٧٢١ — ٢ م) الى ١٠٩ هـ (٧٢٧ — ٨ م) الا ان تلقيه امراً من هشام في هذا الصدد يجعلنا نرى ان التاريخ المحتمل لهذه المئذنة هو من شعبان ١٠٥ هـ (يناير ٧٢٤ م) الى ١٠٩ هـ

هل المئذنة الحالية هي التي بناها هشام ؟

يقول ريفويرا « يبدأ الطابق الثاني من النقطة التي يرتد عندها جدار البرج . وان مواد البناء اذا حكمنا عليها من ذلك الجزء الصغير الذي يمكن ان يرى من الداخل فاننا نجد انها تختلف عن المواد التي بني منها الطابق الاسفل للمئذنة » الخ

ولكن الحال ليست كذلك في هذه الايام فان بناء جوانب السلم وقبلهُ يمكن ان يرى بوضوح كلما صعدنا الى اعلى وهي متماثلة تماماً ومن نوع واحد وليس هناك اقل شك في ان الطابقين الاول والثاني قد بنيا معاً في وقت واحد . اما الطابق العلوي فهناك ما يدعو الى الاعتقاد في انه يرجع الى النصف الاول من القرن التاسع عشر . ونحن نرى مع مارسيه Marcais ان المئذنة الحالية تطبق

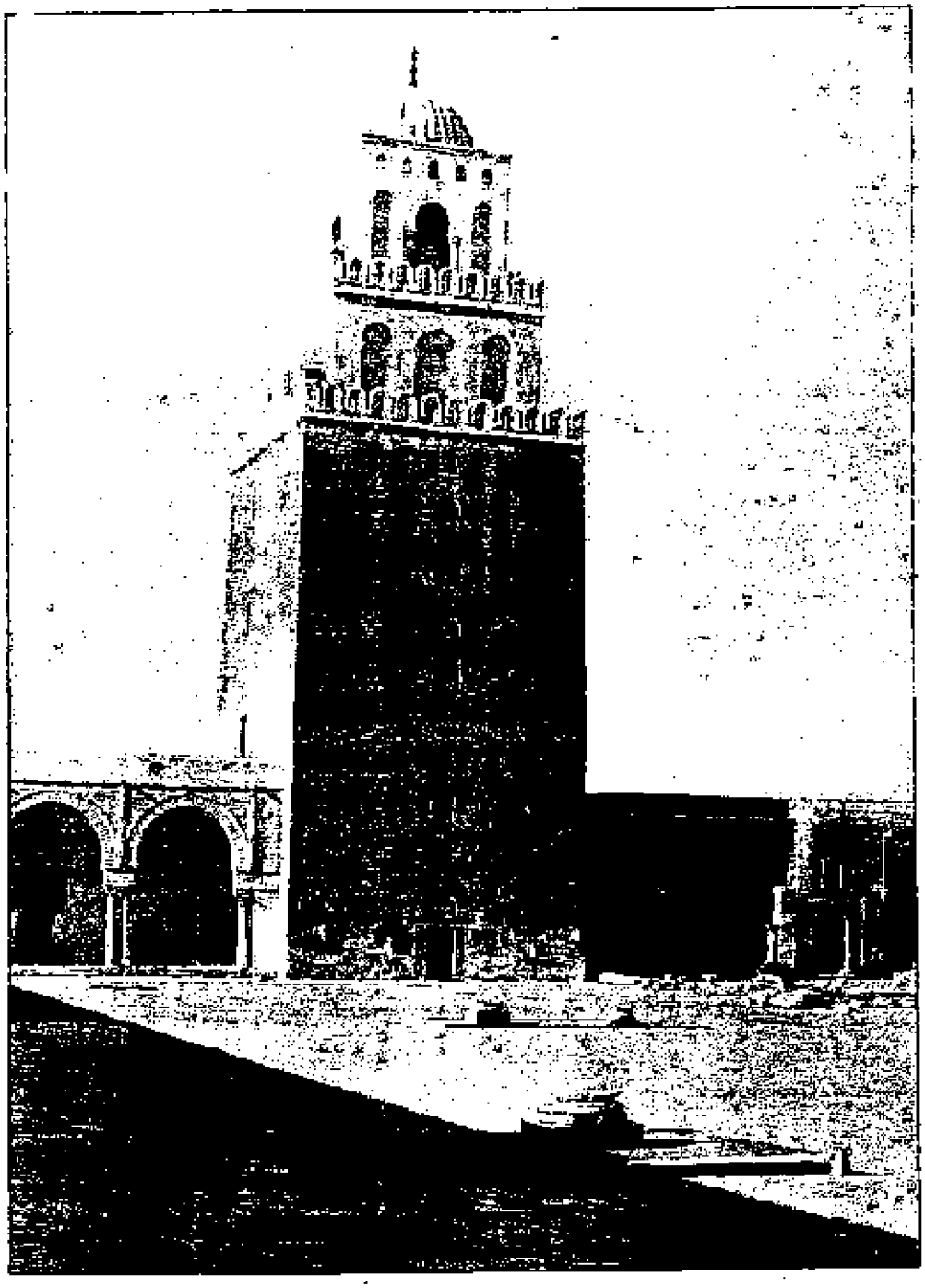

مأذنة جامع القيروان

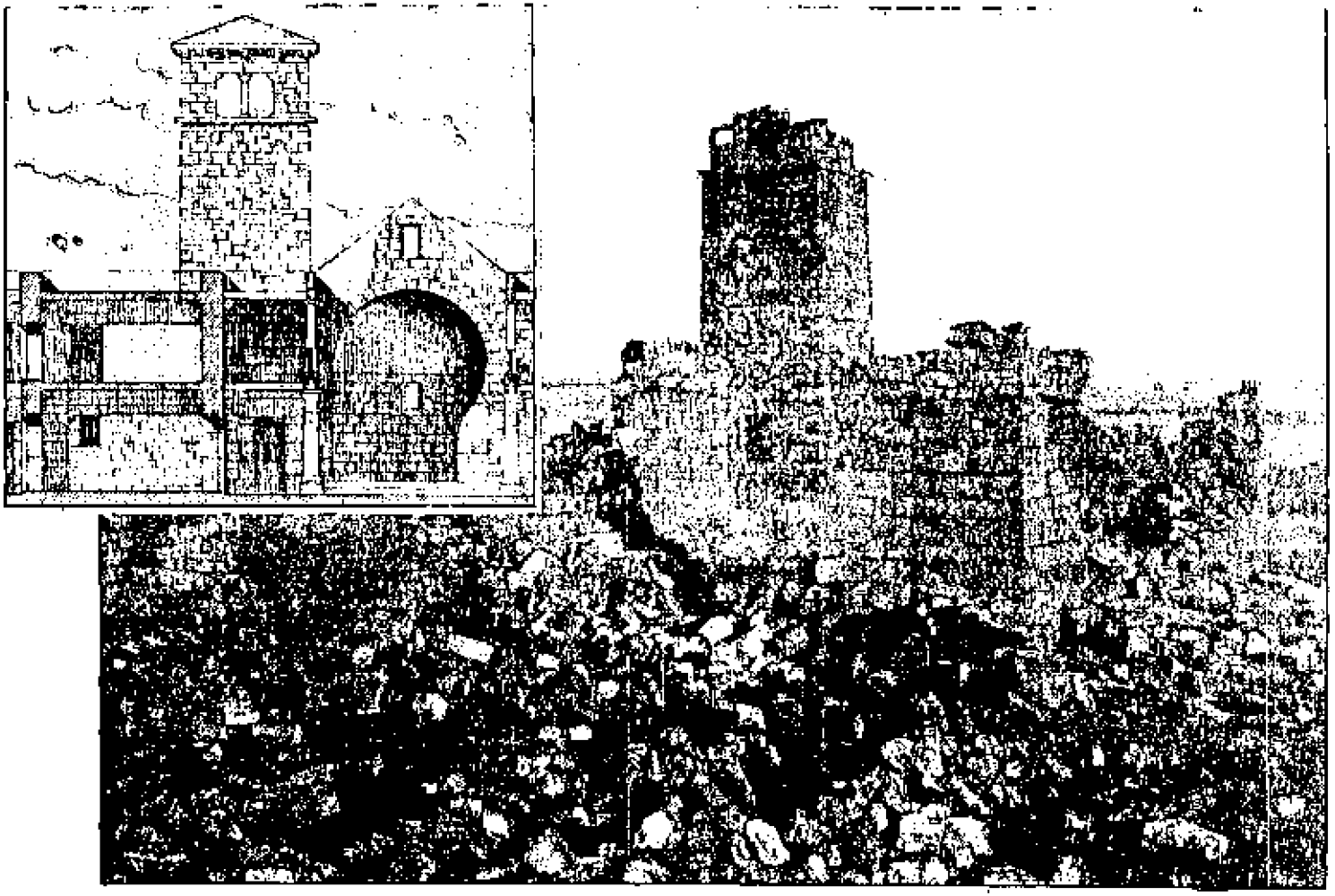

برج كنيسة القديس مرجوس في « ام الرب »

عليها تماماً جميع التفاصيل التي ذكرها البكري. فهو يقول ان المئذنة التي كانت في عصره كان يبلغ كل جانب من جوانبها ٢٥ ذراعاً والآن نرى ان متوسط طول كل جانب من جوانب المئذنة الحالية = ١٠ امتار و٦٣ سنتمتراً اي ان الذراع الذي يتكلم عنه البكري = ٠٫٤٢ السنتمتر. ويقول البكري ان ارتفاع المئذنة ٦٠ ذراعاً فاذا ضربنا عدد الاذرع وهو ٦٠ في طول الذراع الواحد الذي قررنا آنفا انه = ٠٫٤٢ السنتمتر لكان الارتفاع = ٢٥٫٢٠ المتر بينما يبلغ الارتفاع كما قسته بنفسي ٢٥ متراً و٣ سنتمترات حتى قمة شرفات الطابق الثاني. وهذا تطابق مدهش في النتيجة التي وصلنا اليها. من ذلك يتضح ان الطابقين الاول والثاني من المئذنة هما اللذان وصفهما البكري (١٠٦٨م) وان الطابق العلوي قد اضيف بعد ذلك العهد ونظراً لان البكري مؤرخ قديم وقد روى لنا بالتفصيل تاريخ بناء مئذنة القيروان فان لنا كل الحق في ان نرى ان هذه المئذنة يرجع تاريخها الى ٧٢٤ م وهي السنة التي ولي فيها هشام الخلافة

واني وان كنت مقتنعاً بأن المئذنة الحالية هي بذاتها التي وصفها البكري فاني اذكر هنا التحفظ الآتي على سبيل الحيطة. فان بناء المئذنة يشبه تماماً بناء الجزء المكشوف من الدعامات التي بالجانب الجنوبي الشرقي من المسجد وهذه الدعامات لا يمكن ان تكون قد بنيت قبل سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) وان هذه المئذنة التي ينطبق عليها ما رواه البكري ربما كانت حقيقة جزءاً من المسجد الجديد الذي بناه زيادة الله في تلك السنة (٢٢١هـ) ولهذه المناسبة يجب ان نتذكر ان البكري نفسه لم يزر شمال افريقيا ولكنه صنف كتابه معتمداً على مؤلفات كتّاب آخرين كان اغلبهم في النصف الاول من القرن الحادي عشر وعلى التقارير الرسمية التي كان يكتبها المعاصرون من عمال الدولة الاموية باسبانيا وقد عزا مرة الى زيادة الله ٢٢١ هـ اعمالاً يظهر انها لم تكن من عمله بل من عمل ابي ابراهيم احمد الذي خلفه في سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢م). على اننا حتى لو عزونا هذه المئذنة الى زيادة الله فانها مع ذلك اقدم مئذنة في الاسلام موجودة الى الآن اذا استثنينا مئذنة قصر الحير

﴿ الاصول المعمارية ﴾ ان اهم ما يستوقف النظر من التفاصيل المعمارية في هذه المئذنة هو معالجة مدخلها الذي يذكرنا بمدخل البرج الذي يقع شمالي حمام بنحو عشرة امتار كما يشبه مدخل الجزء السفلي القديم من المئذنة الجنوبية الشرقية بالمسجد الكبير بمجاه. ونظراً لان مئذنة القيروان قد انشئت بأمر الخليفة الاموي الذي كان مقر حكمه سوريا فلذلك نجد اثر العمارة السورية واضحاً فيها. فاذا اردنا مواصلة بحثنا وجب علينا معالجة التطور المعماري للمآذن

﴿ التطور المعماري للمآذن ﴾ رأينا فيما سبق ان المئذنة التي بناها عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ (٧١٧ — ٧٢٠ م) بالرملة، لا بد انها كانت برجاً مربعاً وانهُ من الطبيعي جداً ان تكون كذلك لان ابراج الكنائس قبل الاسلام كانت من هذا الطراز ويمكن ملاحظة ذلك في كثير من الكنائس التي بقيت الى يومنا هذا والتي نذكر منها الامثلة الآتية : —

١ — (قصر البنات) دير ذو برج مربع يبلغ ارتفاعه ٢٣ قدماً بناه كيريوس Kyrios وربما كان هذا الاسم هو اسم المهندس الذي وجد منقوشاً على اربع كنائس اخرى في كتابات يختلف تاريخها من ٣٩٠ الى ٤١٨ م

٢ — (أم العرب) في حوران الجنوبي . كنيسة لتقديس مرجيوس Sergius وباخوس Bacchus وبها برج حال مربع الشكل لا يزال سليماً — عدا سقفه فقد تهدم — وقد بني سنة ٤٨٩ م

٣ — (مما) في حوران الجنوبي . دير القديس جورج وبه برج مربع يبلغ ارتفاعه حوالي ١٢ متراً ولا يزال سليماً وقد بني سنة ٦٢٤ — ٦٢٥ م

٤ — (ام الرصاص) وبها برج مربع طول كل ضلع منه ٢٫٥٠ المتر وارتفاعه حوالي ١٢ متراً ومجانبه بقايا بناء يعتقد ترسترم Tristram (١٨٧٣م) انه كان كنيسة نظراً لانهُ استطاع أن يميز بها بقايا هيكل كنيسة . أما فنسنت Vincent فيقرر أن هذا البناء كان حمماً ويقول برونوف Brennow وفون دوملس زوبسكي Von Domaszewksi ان هذا البناء المتهدم كان كنيسة . وفي الحقيقة يوجد هناك بناءان متجاوران أحدهما يظهر أنهُ كان برجاً محصناً (قد يكون كل ما بقي من سور المدينة) والآخر وهو أكثر تهدماً لكنه متصل تماماً بالبرج ونحن نرى أن هذا البناء كان كنيسة لان هناك صليباً يونانيًّا محفوراً على الواجهتين الشرقية والغربية للبرج

٥ — (جرادة) . يضاف الى الامكنة السابقة البرج ذو الخمس الطبقات الملاصق لاروقة كنيسة جرادة فان هذا البرج لا يزال في حالة جيدة

يتضح اذاً ان المئذنة المربعة بالرمة ومئذنة القيروان هما مثالان من امثلة استمرار الاخذ بالتقاليد المعمارية السورية التي كانت بسوريا قبل الاسلام وليس بهذه المآذن طبقات مثمنة او مستديرة كما ان الطابق العلوي لم يكن اساسيًّا كما رأينا . ولا يمكن ان يدعي احد — كما فعل ثيرش Thiersch — ان كل مئذنة ذات طبقات مربعة ومثمنة ومستديرة على التوالي قد اشتقت من المنار ثم يدعي هذه الدعوى نفسها في مئذنة اخرى كل طبقاتها مربعة على ان النسب التي لحظت في جميع الطبقات السفلى في كل حالة غير متشابهة كما يدعي ثيرش . مثال ذلك : ان نسبة قاعدة الطابق السفلي للمنار الى ارتفاعه تساوي ٥ الى ١٢ بينما نجد النسبة في مئذنة القيروان حوالي ٥ الى ٩ اضف الى ذلك ان مئذنة القيروان هي اشبه بابراج الكنائس في سوريا منها بابراج المنارات

﴿ الخلاصة ﴾ يمكننا الآن ان نقرر — ونحن واثقون — ان فكرة بناء المئذنة نشأت بسوريا في عهد الخلفاء الامويين وان المآذن الاولى كانت هي الابراج المربعة القديمة بسور المعبد الوثني بدمشق . وان المآذن التي بناها المسلمون اشتقت معمارياً من أبراج الكنائس السورية . اضف الى ذلك ان التقاليد المعمارية السورية في بناء المآذن قد بقيت عدة قرون بل أنها نفذت الى الجانب الشمالي من بلاد الجزيرة (بين النهرين) كما يلحظ ذلك في مآذن الرقة وحران وديار بكر